ومن أخفهم وأخسهم «أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبأ بهم، لأنهم لم يعبؤوا بأمره ونهيه...»[١].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر، وأخرى تحيل مداد كلمات الله ولو كان ثمانية أضعاف البحر: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله، أو من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟ وكلمات الله؟ ثم ولها حدٌ بعدُ أم لا حد لها؟

علّ ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ فيهما هو مجموعة بحار الأرض، فإنها هي المعروفة لدينا عينياً وقرآنياً[٣] دون سواها من بحار، وما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ لا تجاوب إلّا ما في الأرض من بحار، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في الكون، ولا بحر بعينه في الأرض، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ الّا جنسه الشامل لكل بحر، فـ ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ إذاً عوانٌ بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض.

والمداد ما يمدّ به من مادةٍ للمدّ أو قلم يمدّها، فهناك البحر مداد وما في الأرض من شجرة أقلام المداد.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣١٢ ح ٢٥٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر..

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٣) لا نجد في ٤٠ موضعاً فيها البحر بصيغة موضعاً يدلنا على بحر في غير الأرض، اللهم إلا ما يصلح التعميم وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار.

ثم «كَلِماتُ رَبِّي» هي الدالات لفظياً وعلمياً وعينياً على الربوبية العليا كما «كلمات الله» هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية، فالكلمة ما تدل على معنى في أيّة زاوية من الثلاثة أمّاهيه، وإذا كانت نعمة الله لا تحصى وهي محدودة في الواقع لحدوثها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1] فأحرى بكلمات الرب وكلمات الله ألّا تحصى!

ثم ﴿لَوۡ﴾ في آيتي مداد الكلمات تُحيل أن يكون البحر مداداً لكلمات ربي وكلمات الله، و«لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها، ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾[2] في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة، الرامزة إلى الكثرة الكثيرة، والقصد فيهما إلى استحالة مدِّ الكلمات ككلٍّ بأي مداد، حيث إن مداد البحار والأشجار هي أيضاً من الكلمات، أياً كان الكاتب، وبأية سرعة كانت الكتابة وأيان ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

«كلمات ربي وكلمات الله» وهي كل دالة على الله، ليست هي ذات الله ولا من ذات الله، وإنما هي مخلوقات الله ولا بد وأنها حادثة محدودة، كما توحيه ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى، فضلاً عن أن تكتب، إحالة في بعدين: ١ - أن لا أحدَ يمكنه إحصاءها فضلاً عن كتابتها ٢ - ولو أمكنه فالكاتب نفسه، ومداد البحار والأشجار والورق المكتوب فيه، هي كلها من كلمات الله، ولو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بحذافيرها من كلمات الله فتسلسل مستحيل، أو ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾!

إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية، التي تحملها الأصوات

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

والكتابات والمفهومات، هي من كلمات الرب، وحملتها الرسل والأئمة وسائر العلماء بالله، هم من كلمات الرب، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية ورحيمية هي من كلمات الرب، ومجموعة الكائنات هي آيات الله وكلماته، فأين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات الله!

فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، وكلمات الله هي الدالات على ألوهيته في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية، ومن نِعَم أو نِقَم أمّاذا.

ففيما ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فاستحالة الإحصاء والكتابة التي هي أصعب، في كلمات النعم والنقم أمّاذا هي أحرى!:

وأين أنت أيها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل، والغوص في خضم ذلك البحر الملتطم، وأليمِّ المنسجم من كلمات الرب الله، إلّا غرقاً فيها عن سباحتك!

قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجِّله من مكامن الكون، فتأخذه نشوة الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شيء!

ولكنما الآيات الربانية والإلهية تواجههم بآفاقها المترامية، فإذا هم على خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر.. وحتى لو كان البحر مداداً بيده ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[1] مداداً! فـ «قد أخبرك أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع أبداً»[2] فيما نحصيه!

كلمات الله بعد كل مداد تنتظر مداداً يمدها، ولن يمددها أي مداد، فطالما هو أيضاً من كلمات الله إذا ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾!

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣١٣ ح ٢٥٦ حدثنا محمد بن أحمد عن عبد الله بن موسى عن الحسن بن علي ابن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث قلت: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، قال: قد أخبرك..

فيا لنا من غباوة وعمًى، وحماقة كبرى، نعيش كلمات الله، غارقين في خِضِمِّها، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[١]!

كلمات تذكرنا الرحمن ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾!

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾:

آية يتيمة منقطعة النظير في سائر قرآن التوحيد، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها، لحد يقول الرسول ﷺ عنها: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم»[٢] كفاية عن سائر التوحيد في القرآن وأصلي النبوة والمعاد! وكأنها تحتصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة وتتبناه كل الرسالة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ... أَحَدًۢا﴾ إظهاراً لها وتظاهراً بها في عقيدة القلب، ولفظة اللسان وعمل الأركان وتوجيه العالمين أياً كانوا وأيان! وقد جمعت الأصول الثلاثة نبوة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وتوحيداً في كافة الجنبات: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعاداً: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ...﴾ وقد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها وبأصلي التوحيد والمعاد!

هنا وفي «فصلت» يؤمر الرسول أن يقول ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كلمة توحيدية أحكمت هنا وهناك وفي أضرابهما ثم فصلت في سائر القرآن.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥٧ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: . .

في فصلت يؤمر بعدُ مع العالمين بالاستقامة إلى الله . . . ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[١] وهنا يكمل كلمة التوحيد ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ . . .﴾! واحتصار كيان محمد ﷺ في نفسه بإنه بشر، كلمة يقولها المرسلون أجمع: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] فهو بشر في كل ما للبشر.

ثم ولا يستثنى هو وهؤلاء إلّا في وحي الرسالة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيستثنى عن بشريته كل خطأ وشر، دونما استقلال بجنب الإله، ولا استغلال لشأن من الإله، وإنما «بشر رسول»: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٣].

إنه بشر كسائر البشر في جسمه وروحه كمحمد، اللّهم إلّا في روحه كرسول حيث يمتاز بها عن سائر البشر! فهو في حاجيات ومتطلبات البشرية كسائر البشر يأكل ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام ويفيق. . . ولكنه معصوم بالوحي عن أخطاء البشر وكل ما ينافي الرسالة الإلهية من مثلث العصمة: تلقياً للوحي وإلقاءً وتطبيقاً في نفسه وسواه!

إن الرسول البشر - أم أي كائن سوى الله - ليس ليشرك بالله أم يشارك الله، أو يخوَّل عنه ما ليس إلّا لله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾[٤] كما وأن البشر ليس ليُمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾[٥] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[١] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[٢] ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[٣] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[٤]!

إن كيان محمد كرسول يُحتصر فيما يوحى إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شوراً وسواه أو اجتهاداً من رأيه، فـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٥] فلا يتَّجه في نفسه أو يواجه العالمين إلّا بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾[٦] ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٧]! ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيدات عدة: ١ - توحيد محمد ﷺ في البشرية كوناً وكياناً ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ٢ - توحيد نبوته المحتصرة في وحي الله ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، ٣ - توحيد الله في كافة شؤون الإلوهية: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ٤ - توحيد اللقاء فلا يرجو الموحد إلا لقاءه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، ٥ - توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ٦ - وتوحيد العبادة لله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾!

١ - فـ «قل إنما أنا في البشرية مثلكم» ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾. ولكن خصني بالنبوة دونكم»[٨] لا أزيد ولا أنقص عن نوع البشر كما يقتضيه «إنما» بحصرها كيانه ﷺ في البشرية المماثلة.

٢ - ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وأنا في النبوة كسائر من يوحى إليه مهما كانت بيننا

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٦.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٢٥.
(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٨) نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام - إلى أن قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني آكل الطعام ﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني: قل لهم: أنا في البشرية مثلكم ولكن ربي خصني بالنبوة دونكم...

درجات، ليس نازلتها خارجة الوحي، ولا عاليتها أعلى من الوحي، وليس الوحي إلّا اتصالاً علمياً معرفياً وعملياً خارق العادة المستمرة بالله.

٣ - ومادة الوحي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: هي ترك الإشراك في كافة دركاته وهي هي الحجب كلها، التي تحول دون لقاء الرب، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب، ولقاء رحمات الرب، لزامه خرق الحجب الإشراك في كافة دركات الإشراك! لترقى درجات اللقاء، فاختراق كل دركة ارتقاء إلى درجة، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهنالك كفر وبعد مطلق للمشرك والملحد المطلق، وهنا لقاء مطلق للموحد المطلق، وبينهما درجات بعضها فوق بعض ودركات بعضها تحت بعض.

أترى أن وحيه محتصر في ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومن ورائه أصول أخرى وفروع؟ علّه لأنه الأصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية، وسائر الأصول وكل الفروع تتبنى ذلك الأصل! ولأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ثم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومن ثم ثالث الأصول المعاد ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ثم الأعمال التي تنتجها الأصول ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾!

٤ - ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

وطالما الرب واحد ولكنما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات والقابليات والفاعليات، فـ ﴿رَبِّهِۦ﴾ تلمح إلى مقام الملاقي الخاص به في لقائه، و﴿كَانَ يَرْجُواْ﴾ تضرب إلى عمق الماضي المستمر، ثم ﴿فَلْيَعْمَلْ . . . وَلَا يُشْرِكْ﴾ هما دعامتان للحصول على ما يرجو من لقاء ربه، والوصول إليه.

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقائان: لقاء الله ولقاء الرب، سواء أكان في الدنيا والآخرة أم فيهما، كما أن هناك لقاء في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه وهو الحشر إلى يوم الله وعالم الله، ورجاء اللقاء

يخص الصالحين بما قدموا من صالحات: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١] ولا مقابل ومضادَ لرجاء اللقاء إلا الكفر به والمرية فيه وعدم رجائه.

وآيتا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدى سبيلاً، كذلك ولقاء ثوابه، دون اختصاص بالأولى وإن كانت الأخرى أنبل وأجلى، وقد تشملهما ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٢] فلا تخص الرجاءُ الحياةَ الحساب فإنها متيقنة فوق الرجاء ولا تكفيها الرجاء وإنما ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ في مثلث اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى ولقاء الثواب، إذ لا يحتِّمان على الرب قضية الحالة الإيمانية العوان بين الخوف والرجاء.

فإذا قال «فمن كان يوقن لقاء ربه» اختص بأصل المعاد، وحين يقول «فمن كان يرجو لقاء الله» يعمه والآخرين المرجوين للمؤمنين!

فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام والمطلق دونما حجاب، اللّهم إلّا حجات ذات الألوهية فإنها لزام الذات، كما حصل للرسول محمد ﷺ في مقام «أو أدنى» حيث «تدلَّى» فلم يبق بينه وبين الله أحد ولا من حجب النور حتى نور ذاته ﷺ فأصبح عيناً كلّه، متغافلاً عما سوى الله.

ثم وفيما دونه من لقاء، تستمر الموازاة بين العمل الصالح للّقاء وبين اللقاء.

٥ - ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لما يرجوه من لقاء ربه معرفة وثواباً أمّاذا؟.

عملاً صالحاً في مادته، في علانيته وسريرته، زوايا ثلاث في صلاح

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

العمل تتبنى إصلاحه، فإنه «لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنَّة» فإصابة السنَّة هي مادة العمل وعلانيته، والنية هي سريرته.

فلا تنفع النية الصالحة ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم يعمل، ولا ينفع العمل الصالح ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم ينو، ولا ينفع العمل بالنية الصالحة ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم يصب السنَّة.

ومن صلاح العمل هو خلوصه لله دون أي إشراك فيه لمن سوى الله.

٦ - ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾: فالمشرك بالله لا يعبد الله، وطالما المؤمن يعبد الله دون إشراك في الألوهية، ولكنه قد يشرك في العبودية رئاء أو سمعة أمّاذا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات، ثم ظواهرها ومظاهرها، فلا إشراك في نفس العمل في نفسه أو مقدماته ولا في نيته باعثاً ولا غاية في أية زاوية من مثلث الزمان ولا إشراك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية أو ثواباً أو فراراً عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقاً متحللاً عن أية واسطة، هي المتحللة عن أي إشراك كما يقول أهلها «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»!

فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدركات إلى أعلى الدرجات وبينهما متوسطات، من عبادة باطلة، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك، ثم مقبولة قابلة ولكنها درجات إلى مقام التدلي. «أو أدنى» وهو أعلى الدرجات.

ومن أسفل الدركات العبادة الباطلة علانية وسراً، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها، والنية الخالصة الصادقة في باطنها، ثم الفاقدة لإحداهما..

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والفاقدة لصالح النية هي التي يؤتى بها رئاءً حين يؤتى، أم بعد حين حيث يحب أن يظهر بعد خفاء ويحمد عليه فتشملها الرئاء، فـ «الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس. الثانية ويحب أن يذكر ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رئاءً، فأتقى لله امرىءٍ صان دينه فإن الرياء شرك»(١) بل و«إن يسيراً من الرياء شرك»(٢) سواء أكان قبل العمل أن تخبر غيرك أنك سوف تعبد ربك، أو معه أن ترائي غيرك في العمل، أم بعده، أن تخبر بما عملت سراً وجهراً بنية صافية، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو المتحلل عنه في مثلث الزمان.

فقد تعبد ربك علانية دون رئاء إذ لا ترائي الناس، فإنما تعبد بينهم تقرباً إلى ربك إذ أمرك كالحج وصلاة الجماعة، أو تقريباً لغيرك وتشويقاً كالإنفاق جهراً، وهي عبادة صالحة خالية عن إشراك.

وقد تعبده سراً إذ لا تجد أحداً ترائيه وأنت تحب أن تُرى(٣) ثم تخبر أنك عبدت ربك سراً، أو تعبده سراً مخلصاً ولا تحب الرئاء، ثم الشيطان

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٥٧ - أخرج البيهقي عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٢) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يسير من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة.
وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: إن أحسن أوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣١٥ ح ٢٦٤ في أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية - قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. .